نعمة الجماعة

ومفاسد الفرقة

خطبة ألقاها

الشيخ أ.د. سليمان بن سليم الله الرحيلي

أستاذ كرسي الفتوى بالجامعة الإسلامية والمدرس بالمسجد النبوي الشريف

يوم ٢٧ جمادى الأولى ١٤٣٥

[الخطبة الأولى]

إنّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيّئات أعمالنا، من يهد الله فلا مُضلّ له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٠٢﴾ [آل عمران:١٠٢]

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾ [النساء:١]

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٧١﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١]

أمّا بعد: فإنّ أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتها، وكلَّ محدثة بدعة، وكلَّ بدعة ضلالة، وكلَّ ضلالة في النار، ثم يا عباد الله:

إن ديننا الإسلامي دين شامل كامل، صالح مُصلح لكل زمان ومكان، جاء بإصلاح العباد في المعاش والمعاد، فما من خير إلا دل عليه أو بيّن أصوله، وما من شرّ إلا حذّر منه وسدّ أبوابه، فبيّن للمسلمين كل شيء بالتفصيل فيما يحتاج إلى تفصيل، أو بالتأصيل وبيان الأصول الكلية.

ومن تلك الأصول الكلية -يا عباد الله- أن الإسلام دين الفطرة، لم يرفعها، ولم يصادمها، ولكن هذّبها وكمّلها بما يليق بمكانة الإنسان السويّة.

ومن فطرة الإنسان -يا عباد الله- أنه مدنيّ بطبعه، لا تستقرّ نفسه إلا باجتماع، ولا تتحقّق مصالحه إلا بالتعاون مع من يعيش معه.

ومن هنا حرص النبي ﷺ على إقامة الجماعة، وإحاطتها بما يصلحها، وعندما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة أقام جماعة، إنها -يا عباد الله- أعظم جماعة عرفتها الأرض، أقام جماعة متحابّة متآلفة، وكان ﷺ نبيًّا وإمامًا، وكان يحرص على ترابط الجماعة واجتماعها، حتى في أدقّ تفاصيلها.

ومن ذلك –يا عباد الله– ما جاء عن أبي ثعلبة الخشني ﵁، قال: كان الناس إذا نزلوا منزلاً تفرّقوا في الشعاب والأودية، فقال رسول الله ﷺ: «إنّ تفرّقكم في هذه الشعاب والأودية إنما ذلكم من الشيطان»، فلم ينزل بعد ذلك منزلاً إلا انضمّ بعضُهم إلى بعض، حتى يقال: لو بُسط عليهم ثوب لعمّهم، فقامت الجماعة في زمن النبي ﷺ خير قيام.

وبعد وفاة النبي ﷺ قام الصحابة رضوان الله عليهم بأعباء الحكم، وحافظوا على الجماعة خير محافظة، واستمرّ المسلمون في تاريخهم على المحافظة على الجماعة، تقوى أحيانًا وتضعف أحيانًا، ويقوم شذّاذ منهم بالخروج عليها، ولكن لا تقوم لهم بحمد الله راية.

وإن المتابع لأحوال المسلمين اليوم والناظر في واقعهم وفي الأحداث المزلزلة التي ضربت بعض بلدان المسلمين يلحظ أمورًا متعلقة بهذا الأصل العظيم:

الأول: أن هذه الأحداث قد صدّعت جماعة المسلمين في تلك البلدان وفرّقتهم، وجعلتهم أوزاعًا متفرّقين متناحرين، وعطّلت مصالحهم، بل جعلت الكثيرين منهم يستحلّون دماء بعضهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

والثاني: أنّ جماعات المسلمين في بلدانهم مُستهدَفة ممّن لا يريد بهم خيرًا، بل يعاديهم لدينهم، أو يعاديهم لمخالفتهم له في أهوائه، أو يعاديهم حسدًا لهم على دنياهم.

ولذا نلحظ –يا عباد الله– أن جهود هؤلاء تتضافر لتصديع الجماعة والوحدة القائمة في البلدان التي لم تعطف بها تلك الفتن، بأساليب لا تخفى على عاقل لبيب يدرك ما حوله.

فإذا أضفنا –يا عباد الله– إلى هذين الأمرين العظيمين أمراً ثالثاً، وهو أن طبيعة الإنسان أنه إذا نشأ في نعمة يبدأ لا يشعر بها، ويملّها، ويسعى لغيرها، ظنًّا منه أنّه خير منها، وفي الغالب يؤول أمره إن لم ينتبه إلى فقد تلك النعمة، وعدم الحصول على نعمة غيرها، إذا أضفنا هذا إلى ما تقدم من الأمرين أدركنا –يا عباد الله– أهمّية أن يذكّر بعضنا بعضًا بنعمة الجماعة التي نعيشها.

عباد الله! عباد الله! إن ربّنا يخاطبنا فيقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران:١٠٢-١٠٣]، روى ابن جرير ﷀ بسنده عن ابن مسعود ﭬ في قوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾، قال: الجماعة.

وقال ربّنا ﷻ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران:١٠٥-١٠٦]، روى ابن جرير بسنده عن ابن عباس ﭭ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟﴾، قال: أمر الله جلّ ثناؤه المؤمنين بالجماعة، فنهاهم عن الاختلاف والفرقة، وأخبرهم أنما أُهلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله.

وجاءت الأحاديث العظيمة آمرةً بالجماعة، مبيّنةً سماهّا، دالّةً على فضلها، جاء عن حذيفة بن اليمان ﭬ قال: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله، إنّا كنّا في جاهلية وشرّ، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شرّ؟ قال: «نعم»، قلت: وهل بعد هذا الشرّ من خير؟ قال: «نعم، وفيه دَخَن»، قلت: وما دَخَنُه يا رسول الله؟ قال: «قوم يهدون بغير هديي، ويستنّون بغير سنّتي، تعرف منهم وتنكر»، قلت: فهل بعد ذلك الخير من شرّ؟ قال: «نعم، دعاة على أبواب جهنّم، مَن أجابهم إليها قذفوه فيها»، قلت: يا رسول الله، صِفهم لنا، قال ﷺ: «هم من جلدتنا، ويتكلّمون بألسنتنا»، قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال ﷺ: «تلزم جماعة المسلمين وإمامهم»، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: «فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعضّ أصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك». متفق عليه.

ونلحظ -يا عباد الله- في هذا الحديث العظيم سِمَةً من سمات الجماعة الشرعية، وهي ارتباطها بإمام المسلمين العام إن كان لهم إمام يعمّهم، وإلا -في حال تعدّد الأقطار- فلكل قُطر إمامه، وله حقوق الإمام العام، وعليه واجباته في قُطره، فلا جماعة -يا عباد الله- إلا بإمام.

كما نلحظ نعمةً كبرى للجماعة، ألا وهي السلامة من الفتن والشر، فإن النبي ﷺ بيّن أن النجاة عند حدوث الفتن وزخرفة الأقوال إنما تكون بلزوم جماعة المسلمين وإمامهم.

وجاء عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «نضّر الله امرأً سمع مقالتي فوعاها، وحفظها، وبلّغها، فربّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ثلاث لا يَغِلّ عليهنّ قلب مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة أئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم، فإن الدعوة تحيط من ورائهم».

وهنا -يا عباد الله- نلحظ نعمة كبرى للجماعة، وهي سلامة القلوب من الغلّ والحقد لأهلها، فتجدهم حريصين على الخير لبعضهم، ودفع الشر عن بعضهم، النابع عن المحبة وحب الخير للغير، كما أن هناك نعمة أخرى للجماعة، وهي أن دعوة أهلها يعود خيرها على الجميع، فإن دعوتهم محيطة بهم.

وجاء عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «يد الله على الجماعة، ومن شذّ شذّ في النار».

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد، ومن أراد بحبوحة الجنة فعليه بالجماعة».

وهنا -يا عبد الله- الحظ -رعاك الله- أنّ مِن نعم الجماعة العظمى عون الله وتأييده ونصره لأهل الجماعة، والسلامة من شر الشياطين، من شر شياطين الجن والإنس، وإذا فاز الإنسان بعون الله -يا عباد الله- فاز بكل خير، كما أن هناك نعمة عظمى للجماعة تسكّن نفوس المسلمين وتجعلهم يحرصون على الجماعة، مهما زخرف المزخرفون، وزيّف المزيّفون، ونادى المنادون، أن في ترك الجماعة خير الدنيا، تلكم النعمة -يا عباد الله- أن الصبر ولزوم الجماعة -ولو كان الإنسان في ضيق دنيوي- سبب للفوز ببحبوحة الجنة وسعتها، التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وغمسة فيها تُنسي المرء شقاء الدنيا مهما كان أو اشتدّ، ولا شك -يا عباد الله- أن المؤمن المصدِّق والمسلم العاقل يصبر ما دام أن الوعد جنة رب العالمين، ولا شك -يا عباد الله- أن في الصبر خير الدنيا وحسن العاقبة.

فاتقوا الله عباد الله، واشكروا الله على أن جعلكم مسلمين، والزموا جماعة المسلمين.

أقول ما تسمعون، وأستغفر الله العظيم لي ولكم من كل ذنب، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

[الخطبة الثانية]

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، أما بعد فيا عباد الله:

ذكرنا بعض نعم الجماعة، وهي قليل من كثير، وأما نقمة ضدّها، وأما نقمة الفرقة، فكل نعمة للجماعة فضدّها متحقق في الفرقة، وقد جاء عن حذيفة ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من فارق الجماعة واستذلّ الإمارة لقي الله ولا حجّة له».

ولِما في الفرقة -يا عباد الله- من نقمة على المسلمين وشرّ على الأمة والمؤمنين، فإن الشيطان -يا عباد الله- يسعى فيها جاهدًا، قال النبي ﷺ: «وإن الشيطان مع من فارق الجماعة يرتكض»، فالشيطان -يا عباد الله- يسعى جاهدًا في تفريق الجماعة ويُساعد ويرتكض مع الذين يحاولون تفريق الجماعة، وبعضهم جاهلون لا يعرفون الحق، وبعضهم مُغفَّلون، وبعضهم يستعملهم شياطين الإنس والجن.

وقد جمع النبي ﷺ ما علمناه من نعمة الجماعة وما لم نعلمه، وما تصوّرناه من عذاب الفرقة وما لم نتصوّره، في عبارة جامعة نافعة لمن أحبّ المصطفى، ولزم الهدى، واجتنب الهوى، فقد جاء عن النعمان بن بشير ﵄، قال: قال رسول الله ﷺ: «الجماعة رحمة، والفرقة عذاب»، الجماعة رحمة، والفرقة عذاب، هكذا أخبر النبي ﷺ، فمن أراد الرحمة له، والرحمة لأهله، والرحمة لمجتمعه، والرحمة لأمّته، فليلزم الجماعة مهما كان فيها من نقص، وليجتنب الفرقة، فالفرقة عذاب كلّها.

فاتقوا الله عباد الله، واحمدوا الله على ما رزقكم من الجماعة، واسعوا في توطيدها، وناصحوا من ولاه الله أمركم بالطرق الشرعية النافعة، لعلّكم أن تكونوا من المفلحين، وإياكم أن تغترّوا بالدعاوى الدنيوية أو ما يشابهها، فإنه لا خير للمؤمنين -يا عباد الله- إلا في (قال الله، قال رسوله ﷺ)، ومن لزم الكتاب والسنة فليبشر بالخير في دنياه، وليبشر بالخير في دينه، وليبشر بالعاقبة الحميدة عند لقاء الله ﷿.

ثم اعلموا -رحمني الله وإياكم- أن الله أمرنا بأمر عظيم جليل، بدأ فيه بنفسه، ثم ثنّى بملائكته، فقال -عز من قائل-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب:٥٦].

وقال النبي ﷺ: «من صلّى عليّ صلاةً واحدة صلّى الله عليه بها عشرًا».

فاللهمّ صلّ على محمد وعلى آل محمد، كما صلّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، وسلّم تسليمًا كثيرًا، وارضَ اللهمّ عن الصحابة أجمعين، وارضَ اللهمّ عن الصحابة أجمعين، وارضَ اللهمّ عن الصحابة أجمعين، وارضَ عنّا معهم بمنّك وكرمك يا أكرم الأكرمين.

اللهمّ اجعلنا ممّن رضيت أقوالهم وأعمالهم وقبلتها يا رب العالمين، اللهمّ اجعلنا ممّن رضيت أقوالهم وأعمالهم وقبلتها يا رب العالمين، اللهمّ اجعلنا ممّن رضيت أقوالهم وأعمالهم وقبلتها يا رب العالمين.

اللهمّ اجعلنا هداةً مهتدين، اللهمّ اجعلنا هداةً مهتدين، اللهمّ اجعلنا هداةً مهتدين.

اللهمّ اجعلنا من الساعين إلى الخير يا رب العالمين، اللهمّ ما علمته من خير اللهمّ فقرّبنا إليه وقرّبه إلينا يا رب العالمين، وما علمته من شرّ فباعد بيننا وبينه كما باعدت بين المشرق والمغرب يا رب العالمين.

اللهمّ أَدِم الخير والأمن في بلادنا يا رب العالمين، اللهمّ أدم الخير والأمن في بلادنا يا رب العالمين، اللهمّ أدم الأمن والخير في بلادنا يا رب العالمين.

اللهمّ زدنا حبًّا واجتماعًا، اللهمّ زدنا حبًّا واجتماعًا، اللهمّ زدنا حبًّا واجتماعًا.

اللهمّ اكفنا شرّ كل شرّير -يا رب العالمين- يريد ديننا، أو يحسدنا على دنيانا، أو يريد أن يفرّق كلمتنا يا رب العالمين.

اللهمّ أَدِم الأمن والخير في بلادنا وارزق بلاد المسلمين الأمن والإيمان يا رب العالمين، اللهمّ اجمع كلمة المتفرقين في بلدان المسلمين على الهدى والخير يا رب العالمين، اللهمّ اجمع كلمة المتفرقين في بلاد المسلمين على الخير والهدى يا رب العالمين.

اللهمّ يا ربّنا، إن إخواننا أهل السنة في سوريا يعانون الظلم والأمرّين، اللهمّ فاكشف عنهم الكَرب يا رب العالمين، اللهمّ اكشف الكَرب عنهم يا رب العالمين، اللهمّ اكشف الكَرب عنهم يا رب العالمين.

اللهمّ إنا اجتمعنا في بيت من بيوتك، نؤدّي فريضة عظيمة من فرائضك، نرجو رحمتك ونخاف عذابك، اللهمّ فأعطنا ما نرجو وأمّنّا ممّا نخاف، وزدنا من فضلك يا رب العالمين.

اللهمّ من علمته منّا مهمومًا فاكشف همّه يا رب العالمين، اللهمّ من علمته منّا مكروبًا فارفع كربه يا رب العالمين، اللهمّ من علمته منّا مدينًا فاقضِ عنه دينه يا رب العالمين.

اللهمّ يا ربّنا، يا حيّ يا قيّوم، يا بديع السماوات والأرض، نسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العلى كما جمعتنا في هذا اليوم المبارك، في هذا المسجد المبارك، في هذه الساعة المباركة، أن تجمعنا ووالدينا وأهلنا ومن نحبّ في الفردوس الأعلى أجمعين، اللهمّ اجعلنا من أهل الجنة أجمعين، اللهمّ اجعلنا من أهل الجنة أجمعين، اللهمّ اجعلنا من أهل الجنة أجمعين.

ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار.

عباد الله! ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠﴾ [النحل:٩٠].

فاذكروا الله العظيم يذكركم، واشكروه على نِعمه يزدكم، ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ۝٤٥﴾ [العنكبوت:٤٥].